المُدخِّنـــــة

من أطرف المواقف التي صادفتني في حياتي مشهد لسيدة تقترب من الخمسين عامًا تُخرِج سيجارة مارلبورو ومشط كبريت من حقيبتها - الجلد الطبيعي - وتشعلها في عربة مترو مخصصة للرجال!!

ولأنني فوجئت بهذا الموقف في الساعات الأولى من نهار يوم اثنين على ما أتذكر، لحظة صعودي من محطة الشهداء للتوجه إلى محطة أم المصريين، جعلت من عيني راصدًا جيدًا لردود الأفعال «الرجالي» على هذا الحدث الأنثوي في عدد من اللقطات السريعة:

اللقطة الأولى:

- شاب أمسك بهاتفه المحمول، ويبدأ في التسجيل «صوت وصورة» للسيدة وهى في حالة انسجام تاااااااام بدخان سيجارتها، متجاهلة بذلك اعتراض جميع ركاب العربة، ذكورًا وإناثًا.

اللقطة الثانية:

- مشادة كلامية بين الركاب تكشف عن عدد من المعارضين وآخر من المؤيدين للتدخين داخل المترو، بصرف النظر عن كون من فعلها سيدة أم رجلاً.

اللقطة الثالثة:

- المشهد نفسه به من الطرافة ما يجعل الإنسان «العاقل» يبحث ويدرس شخصية السيدة المدخنة، وسلوك الركاب، سواء المتعاطفون مع جرأتها، أم الرافضون لسلوكها، خصوصًا من سيدة يبدو من ملبسها وحديثها أنها مثقفة جدًّا.

اللقطة الرابعة:

- قيام شاب «متزمت» بالاقتراب من السيدة، وخطف السيجارة من يدها؛ ليلقى بها على الأرض، في الوقت الذي يتدخل فيه شاب آخر «متفتح بعض الشيء»، وينهر «المتزمت» على فعلته، ويطلب منه الهدوء؛ حتى يسمع الدوافع التي جعلت هذه السيدة تقبل على تلك الخطوة، بعد أن قال للمدخنة بكل أدب واحترام:

- سيدتي، صدرنا بيتعبنا من الدخان وأن التدخين ممنوع في المترو .

لحظتها استوعبت السيدة المدخنة جُرم ما أقدمت عليه، وقالت:

- «أنا كمان صدري بيوجعني، ومع ذلك، فيها إيه لما ادخن سيجارة؟!، وعلى أي حال أنا باعتذر منكم جميعاً، إن كنت قد تسببت لكم، أو لبعضكم في كل هذه الأزمة».

وتضيف السيدة:

- أنا يا دوب واصلة من أوروبا، ولم أنتبه حقيقة أن التدخين ممنوع في المواصلات العامة داخل مصر، رغم أنني لا أستطيع القيام بهذا الفعل في الخارج؛ نظرًا للقوانين الرادعة التي تطبق على المسئول الكبير قبل الصغير.

اللقطة الأخيرة:

- كان مهمًّا جدًّا أن أتدخل في الحوار من باب الفضول، أو على الأقل بحكم

المهنة.. فما كان مني إلا أن تحدثت ببعض الكلمات التي تتناسب مع الموقف، على سبيل المثال: حصل خير يا جماعة، ولا داعي للاستمرار في سجال لا طائل منه و....

فردت السيدة بشكل راقٍ جدًّا، وقالت:

- رغم كل ما أصابني من نظرات غريبة وكلمات قاسية جدًّا على سمعي، إلا أنني سعيدة بهذا الموقف، الذي كشف لي عن مدى حرصكم على نظافة مرفق حيوي بأهمية مترو الأنفاق.

بعد هذه الكلمات، وجدت معظم ركاب العربة يعتذروا للسيدة المدخنة على ما بدر من بعضهم تجاهها، ومن ثم بادلتهم هي نفس الشعور والكلمات الطيبة، وانتهى الموقف وكأن شيئًا لم يكن.. انتهى.